أو من تقدمت به السن من عامة الناس . أما الشــباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلايفكرون فى المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته ، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدّى شعائره إلا القليل النادر ، كأن السينما والمساجــد اقتسما الناس ، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء ، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء ، وهى حال لا تشعر بأمل ، ولا تبشر بخير

ووزارة الأوقاف كذلك عدّت المساجد « آثاراً » ، فهى تسير فى تعيين أئمتها وخطبائها وفى مراقبتها سير القرون الخالية كأن الزمن لا يسير

والأئمة والخطباء يعاملونهــا معاملة « الآثار » فهم يقرأون غالباً الخطب التى ألفت فى القرون الماضية ، فلا تحرك نفساً ولا تحيي همة — كل ما فيها « اتقوا الله » إجمالا من غير تفصيل . أما ما يحدث بيننا من أحداث ، وأما مانشعر به من مصائب وما ينتابنا من كوارث ، فلا دخل لهم فيــه ، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه

ورحبت السياسة بهذا النظر الأثرى إلى المساجد فاطمأنت إليه لأنه يخدمها ، وإلا فما بالنا نرى المسجد بعيداً عن الناس هذا البعد ، هل لو أراد الخطباء غير الامام أن يخطبوا فى المسجد فى إصلاح الحالة الاجتماعية أجيب طلبهم ؟ وهل لو نظمت محاضرات ثقافية فى المسجد للشبان مرة والشواب مرة فى الأخلاق والتربية الوطنية تسمح وزارة الأوقاف بذلك ؟ أكبر الظن أن لا

الحق أن للناس بعض العذر فى الانصراف عن المساجد ، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم ، وشعر الناس أنهم يجدون فى المسجد متعة روحية وغذاء دينياً واجتماعياً ، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات

وقد كان المسجد فى الاسلام يقوم بهذه النواحى التى ذكرنا ، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون فى المشاكل الحاضرة — وكانوا يخطبون كلما حزبهم أمر أو عرض لهم مُهِمّ ، وكان للمسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والمتأدبين ، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين ، وكان المسجد مجمع الناس فى الأعياد والمواسم ، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار ، ولو سار فى طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدى كل الخدم الاجتماعية التى أشرنا إليها من قبل ولكن « خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب »

هل للأزهر ووزارة الأوقاف أن يتعاونا على إصلاح المسجد ويضعا البرامج له على أنه مرفق اجتماعى كما هو مركز دينى ؟ ؟ . .

إن إصلاحه على هذا الوضع تقوية للدين ، وإصلاح للناس ؟

فى القطار الى (رأس البر) — أحمد أمين

بين الأسطورة والتاريخ

هل أحرق فاتح الأندلس سفنه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتخذ شخصية طارق بن زياد فاتح الأندلس مكانها بين عظماء الفاتحين ، لا فى التاريخ الاسلامى وحده ، ولكن فى تاريخ الأمم القديمة كلها ؛ وتعتبر موقعة شذونه أو « مدينا سدونيا » من أعظم الوقائع الحاسمة فى تاريخ الانسانيــة ، ففيها افتتح العرب اسبانيا وغنموا ملك القوط ، وشادوا صرح تلك الدولة الأندلسية الزاهرة التى لبثت قروناً تبهر أمم الغرب بقوتها وفخامتها وروائع حضارتها وفنونها . بيد أنه من الغريب أن شخصية الفاتح العظيم — طارق — بينما تبدو فى بعض نواحيها وضاءة مشرقة ، إذا بها تبدو فى البعض الآخر خفيــة يكتنفها الغموض ؛ فالرواية الاســلامية تختلف حول نشأة طارق وحول نسبته وجنسيته ، وتكاد تسدل على مصيره بعد الفتح ستاراً من الصمت والنسيان

ولسنا نعرض فى هذا البحث لشخصية طارق أو تاريخه أو اختلاف الرواية فى شأنه ، ولكنا نعرض لواقعــة ترتبط باسمه ، وقد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا فى لون التاريخ الحق ، تلك هى واقعــة إحراق السفن التى نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الأفريقى إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف أن فتح الأندلس قد تم بدعوة من الكونت يوليان القوطى حاكم سبتة والضيق لخصومة سياسيــة وشخصية بينه وبين رودريك (لذريق) ملك القوط ، وأنه عاون العرب بخدماته ونصحه ، وأنه هو الذى قدم السفن التى عبر العرب عليها إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك

(رمضان سنة ٩١) ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق بن زياد (رجب سنة ٩٢ - ابريل سنة ٧١١ م) . وهنا نذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى اسبانيا حتى أمر باحراق السفن التى عبر عليها جيشه وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو الظفر ، ويقطع عليهم كل فكرة فى التخاذل أو الارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الاسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها سوى بعض الروايات النصرانية المعاصرة أو المتأخرة ؛ ولا تذكرها الرواية الاسلامية إلا فى موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الادريسى فى معجمه الجغرافى الشهير « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس [1] ؛ وقد نقلت الروايات النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الأدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فان جميع الروايات الاسلامية تمر عليها بالصمت المطبق

وهنالك وجه آخر لتأييد هذه الرواية هو الخطاب الذى يقال إن طارقاً ألقاه فى جنده قبيل نشوب الوقعة الحاسمة بينه وبين القوط ؛ ونحن نعرف هذا الخطاب الشهير الذى مازال يحفظه الطلاب كنموذج من أبدع نماذج البلاغة العربية ؛ فقد استهله طارق بقوله : « أيها الناس ؛ أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الأفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا نلاحظ من جهة أخرى أن هذا الخطاب الحربى الشهير الذى تنسبه الرواية الاسلامية المتأخرة إلى طارق ، لم يرد فى روايات المؤرخين المتقدمين ؛ فمثلاً لم يذكره ابن عبد الحكم والبلاذرى وهما أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ؛ وذكره ابن قتيبة ، ولم يشر اليه ابن الأثير وابن خلدون ، ونقله المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه [2] ، وهو على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين ؛ وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نتخذه دليلاً مادياً على واقعة إحراق السفن ؛ ولو صح أن طارقاً قد ألقى مثل هذا الخطاب فعلاً — وهو ما نراه موضع الشك — فانه يمكن تفسيره بأن السفن التى عبر عليها طارق وجيشه كانت ملكاً للكونت يوليان القوطى ، ولم تكن سوى أربع ، وقد عبر الجيش الاسلامى عليها تباعاً فى مرات عدة ، فمن المعقول إذاً أن يعتبر طارق أنه فى حالة الهزيمة لم تكن لديه وسيلة سريعة للارتداد وعبور البحر إلى افريقية

على أنا نستطيع مع ذلك أن نأخذ برواية الشريف الادريسى ؛ وإذا كان احتراق السفن على هذا النحو لقطع الرجعة والارتداد على جيش فاتح عمل بطولة رائع ، فانه لما يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ، وليس موقف قيصر فى غاليا أو موقف بونابارت فى إيطاليا فيما بعد بأدعى للاعجاب من موقف طارق فى سهل شريش (مكان اللقاء الحاسم)

* * *

والظاهر أن إقدام الغزاة على إحراق السفن على هذا النحو الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس نوع من أساطير البطولة الخارقة التى ترجع إلى أقدم عصور التاريخ ؛ ففى كثير من مواطن التاريخ القديم الممزوج بخوارق الأسطورة تعرض مثل هذه الواقعة للتنويه بعمل بطولة خارق . على أننا لا نعدم أيضاً فى التاريخ الحق أمثلة واقعة منها . ففى التاريخ الرومانى مثل رائع لهذا الحدث هو مثل الامبراطور يوليان فى حملته الفارسية . وكان يوليان مذ جلس على عرش قسطنطينية ، يتوق إلى غزو فارس وتحطيم تلك الدولة الشامخة التى ما زالت منذ الحقب تناهض دولة القياصرة ، وكان مثل الاسكندر المقدونى يحفزه ويذكى عزمه ؛ ففى سنة ٣٦٣ م ، سار يوليان من انطاكية حيث كان ينظم أهبته فى جيش ضخم ، واخترق صحراء الشام من جهة الشمال ، ثم سار جنوباً بمحاذاة الفرات ، وسار فى نفس الوقت فى الفرات أسطول رومانى ضخم يحمل أقوات الجيش ؛ ثم عبر يوليان نهر الفرات ، واجتاح بلاد الأشوريين ، وأشرف على نهر دجلة حيث كان الفرس فى انتظاره فى الضفة الأخرى ؛ وحمل الرومان سفنهم المشحونة بالمؤن والذخيرة من الفرات إلى الدجلة بعد جهود ومشاق هائلة ؛ واعتزم الامبراطور أن يعبر الدجلة بجيشه ليقابل سابور ملك الفرس فى قلب مملكته كما فعل الاسكندر من قبل حيث هاجم الفرس فى عقر أرضهم ؛ وهنا اعتزم الامبراطور فجأة أن ينفذ فكرة جريئة جالت بخاطره

(١) راجع « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » طبع روما ص ١٧٨

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١١٢

وهى أن يحرق أسطوله الراسى فى دجلة ؛ وفى الحال نفذت الفكرة وأحرق الأسطول الرومانى الضخم ولم تنقذ منه سوى سفن قلائل استبقيت لاجتياز الأنهر ، ولم يتزود الجيش الامبراطورى إلا بمؤونة عشرين يوماً ؛ وكان يوليان يرمى بذلك الاجراء إلى غاية حربية حكيمة هى ألا يمكن القوات الفارسية المحصورة فى مدينة اكتسيفون قاعدة الجزيرة من انتهاز فرصة توغله فى الداخل ومهاجمة أسطوله والاستيلاء عليه وعلى المؤن التى يحملها غنيمة باردة . وقد حكم التاريخ على يوليان ولم يحكم له ، ذلك لأنه لم يكن موفقاً فى غزوته ، وقد لقى جزاء جرأته فى نكبة جيشه أمام الفرس وفى مصرعه متأثراً بجراحه ؛ وارتد الجيش الرومانى مهزوماً ممزقاً ونجت فارس بحريتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى حتى كان الفتح العربى

* * *

وفى التاريخ الحديث مثل واقعى رائع أعدمت فيه سفن الجيش الفاتح ، هو مثل هرناندو كورتيز فاتح المكسيك ؛ ومن غرائب القدر أن يكون أروع نموذج لهذا الضرب من البطولة اسبانى يذكرنا بطارق فاتح اسبانيا وما ينسب إليه فى هذا الصدد . ومن المرجح جداً أن يكون فاتح المكسيك قد تأثر بالمثل الرائع الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس ؛ وقد كان طارق وكورتيز فى الواقع كلاهما أمام ظروف متماثلة : مغامرة مجهولة الظروف والعواقب ، ومحاولة جريئة لافتتاح أرض جديدة وعالم جديد ، وجيش قليل العدد ليواجه جيوشاً زاخرة لا يعلم نوعها ولا مدى قوتها . بيد أن مغامرة كورتيز وقعت فى ظروف أكثر دقة وخطورة ؛ فقد كانت اسبانيا من أمم العالم القديم ولم تكن مجهولة تماماً من العرب وكان بها شعب قديم يتمتع بحضارة لا بأس بها ؛ ولكن كورتيز كان أمام عالم مجهول تكتنفه الظلمات من كل ناحية ، ولم يكن يعرف ما هى الأرض ، وما هى الأمم التى يزمع اقتحامها بجنده القليل

وصل كورتيز فى أسطوله المتواضع الى مياه المكسيك فى سنة ١٥١٩ ليغزو امبراطورية « الازتكيين » الهندية ، ولم يكن يعرف الأسبان يومئذ عنها شيئاً إلا أنها امبراطورية ضخمة غنية تفيض بالنعم والذهب الوهاج ؛ وما كاد كورتيز وجنده يضعون أقدامهم فى الأرض الجديدة ، حتى فكر الفاتح الجرىء فى إعدام سفنه ؛ وأعدمت فى الحال باغراقها ؛ وكان كورتيز يرمى بهذا الاجراء إلى غاية ظاهرة هى ألا يدع إلى قلوب جنده سبيلا إلى الخور أو أملا فى الارتداد . إما الظفر أو الموت : هكذا كان شعار كورتيز ، وهكذا كان عزمه وخطته ، وكان عملاً جريئاً ، ولكن ضرورياً ، حتى لا يجد الناقمون أى وسيلة لمغادرة إخوانهم ، وحتى يرتمى الجميع فى أحضان الموت لا يلتمسون به بديلاً سوى الظفر . ولا ريب أن عمل كورتيز عمل بطولة خارق ، وربما كان أعظم عمل من نوعه فى التاريخ ، لأن الفاتح الأسبانى تقدم فى جرأة مدهشة لافتتاح الامبراطورية الهندية العظيمة بجيش لا يعدو عدة مئات ، ولم يحجم مع ذلك عن إعدام أسطوله ، وهو وسيلته الوحيدة للنجاة فى حالة الهزيمة والفشل ؛ وكان ظفره بافتتاح ذلك العالم الجديد عظيماً مدهشاً (١)

ومثل هذه الحوادث تبدو فى التاريخ كالأسطورة وقد تمتزج أحياناً بالأساطير ؛ وكلما بحثت فى ثنايا التاريخ كلما كان امتزاجها بالأسطورة أشد وأقوى . بيد أننا هنا أمام أمثلة واقعة . وفى التاريخ حوادث من نوع مماثل فى شذوذه وروعته ما زالت فى عصرنا تبدو كالأعاجيب الخارقة ، فمثلاً يذكر التاريخ أن محمداً الثانى سلطان الترك العثمانيين وفاتح قسطنطينية ، حينما حاصر قسطنطينية من البر والبحر ، ولم يستطع أسطوله أن يقتحم خليج القرن الذهبى الذى تقع عليه المدينة من البحر ، اعتزم فى الحال أن ينقل أسطوله إلى البر ، مما يلى مؤخرة القرن الذهبى ، ونفذ مشروعه الخارق بالفعل ونقل أسطوله الضخم على طريق من الخشب المطلى بالدهن والشحم ، ثم دفعه إلى داخل القرن الذهبى ؛ وبذلك تم تطويق المدينة ، ولم تلبث أن سقطت فى أيدى الغزاة (١٤٥٣ م) . بيد أن هذه الحوادث والأعمال الخارقة لا تبدو فى روعتها الحقيقية إلا إذا اصطبغت بألوان العصر الذى وقعت فيه ، وقد ينتقص من قدرها إذا قدرت بمعيار عصرنا ، وتفهمها بروح العصر الذى وقعت فيه هو وحده الذى يسبغ عليها هذا اللون القوى من البطولة الخارقة ، وهذا السحر الذى تبثه إلينا أعمال تشبه الأساطير فى روعتها

محمد عبد الله عنان

(١) نرى أن نشير هنا إلى كتاب من أبدع كتب التاريخ هو « فتح المكسيك » Conquest of Mexico بقلم المؤرخ الأمريكى وليم برسكوت ، ففيه عرض بديع لسيرة هذا البطل الفاتح وأعماله العظيمة